المحاضرة رقم2 :

العلاقات الجزائرية المغربية على عهد (الدولة السعدية 1509-1640)

مقدمة :

نشأت الدولة السعدية في المغرب الأقصى ويعود نسبهم إلى أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ويقولون أن جدهم المولى زيدان بن أحمد كان يقيم في ينبع النخل في طريق المدينة المنورة فاتصل به أهل درعه في السوس واستدعوه للحصول على بركته في صلاح ثمارهم التي كان يعتريها العطب حسب تقليد كان جاريا في بلاد المغرب» فجاء واستقر في وادي درعة والسوس الأقصى دون تعيين زمن لقدومه. وهناك من ينسبهم إلى عرب من بني سعد بن بكر. وقد وكان نسبهم الشريف يكسبهم شيئا من الاحترام بين قبائل المنطقة هذا الاحترام ما دفع بقبائل المنطقة على مبايعة أحد زعماء السعديين ويدعى " أبو عبد الله محمد السعدي" الملقب بـ القائم بأمر الله 1509م مؤسس دولتهم وأول سلاطينهم فأخذ يعد العدة لتصفية ما تبقى من أملاك الوطاسيين ثم التفرغ لمقاومة التحرشات البرتغالية ومهاجمتهم في مدينة أغادير ولكنه لم ينجح في اقتحام المدينة ، ومع ذلك دان له إقليم السوس بالكامل تقريبا ثم انتقل إلى حاحة وهناك توفي.

ساد العلاقات السعدية العثمانية مع بداية النصف الثاني من القرن 16م، التوتر والصراع ، ثم طبعت بالهدوء والحذر والتعاون في أحيان أخرى.

1-العلاقات في عهد السلطان محمد الشيخ

ففي عهد السلطان محمد الشيخ السعدي(1540-1557)، تمكن من دخول مدينة فاس 1541م وطرد حاكمها الوطاسي منها ثم استغل انشغال حسن بن خيرالدين الذي جهز جيشا لفتح وهران فبادر الشيخ السعدي بالتوجه الى تلمسان وحاصرها الى أن تمكن من دخولها1550م ، ونفى الترك منها وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي الشلف ، وقيل بان هجومه على تلمسان جاء تلبية لطلب بعض كبار التلمسانيين المقيمين في فاس.

وبالرغم من ذلك بادر السلطان العثماني سليمان القانوني بخطة قصد تحسين

العلاقات مع الشيخ السعدي بعد معركة تلمسان بان أرسل له وفدا عام1553برئاسة محمد بن علي الخروبي الطرابلسي فدخلت البعثة على السلطان السعدي(محمد الشخ) بمراكش وفاوضوه على الاعتراف بالسلطان العثماني والدعاء له في خطبة الجمعة وإطلاق سراح الأسرى من بني وطاس وترسيم الحدود بين الجزائر والمغرب مقابل عدم تدخل العثمانيين في الشؤون الداخلية للمغرب؛ إلا أن السلطان محمد الشيخ رفض بل تطاول بلسانه على السلطان فاكسب لنفسه عداء العثمانيين.

غضب العثمانيون كثيرا لمقتل أبا حسون الوطاسي عام 1554م ، فأردوا الانتقام له بأن دبروا مكيدة للسلطان محمد الشيخ للتخلص منه وكان ذلك في اكتوبر1557م ، فأرسلوا له بضع عشر من الرجال إلى المغرب على أساس أنهم فارون من حكام الأتراك بالجزائر فوثق بهم محمد الشيخ وقربهم منه . وفي إحدى الليالي وهو مقيم بجبل درن "موقع أكد كال " ترصدوا له وانتهزوا فرصة غوصه في نوم عميق فانقض عليه هؤلاء الأتراك وقتلوه وقطعوا رأسه وأُخذ إلى الباب العالي وعلقت على باب القلعة.

2-محمد الغالب بالله (1557 - 1574)

بمقتل محمد الشيخ خلفه ابنه أبو محمد عبدالله الغالب انتقل هذا الأخير إلى مراكش لأن أنصار الأتراك قد كثروا بمدينة فاس وزادت نقمتهم عليه حينما أبدى تعاونه مع الاسبان حيث تنازل لهم عن ثغر بادس عام 1556م والحق بالعثمانيين الهزيمة في معركة جرت بينهما بالقرب من مدينة فاس عام 1557 في الحملة التي كانت بقيادة حسن بن خير الدين . ويذكر عن السلطان السعدي هذا بأنه كثير التحالفات مع الاسبان ضد الأتراك و الغدر بالأندلسيين ؛ حتى أن البعض من أفراد أسرته لم يسلموا من القتل والتنكيل بهم وعلى اثر ذلك فر منه ثلاثة من إخوته ، وهم: " عبدالملك ، أحمد المنصور وعبد المؤمن" .

3- الصراع على العرش:

لما توفي السلطان عبدالله الغالب بعد مرض أصيب به ، خلفه على العرش ابنه محمد المتوكل(1574-1576)، وقد جاء فيه الكثير من الروايات المدح ؛ مثلما جاء

في كتاب الدولة السعدية التاكمادية لمؤلف مجهول بان السلطان المتوكل كان سخيا معطاء مع الفقهاء والفضلاء والمساكين والضعفاء على حد السواء، وكان متفقدا لأحوال الرعية عادلا بين الناس وكل مساعيه محمودة ماعدا إتيانه بالنصارى لوادي المخازن، وهناك من يقدح فيه ويصفه انه كان متكبرا غير مبال بأحد كثير السفك بالدماء شديد العسف على الرعية فكان شره مردود عليه بان نجح عماه عبدالملك المعتصم واحمد المنصور في الحصول على دعم الترك لهما بعدما شاركا الأتراك في تحرير تونس من الاسبان وإنهاء حكم الحفصيين منها عام 1574 ، ويعود الفضل في ذلك أيضا إلى جهود البيلرباي العلج علي الذي سعى جاهدا إلى توحيد الصفوف بين الأتراك والمغاربة من اجل طرد الاسبان نهائيا من شمال افريقيا.

وفي عام1576 تمكن عبدالملك من التغلب على ابن أخيه " المتوكل" الذي فرّ لاجئا إلى الجنوب ثم توجه إلى طلب المساعدة من الاسبان فلم يجدها ؛ ومنها توجه إلى ملك البرتغال (الدوق سبستيان1557-1578) لطلب العون منه والذي وافق دون تردد.

4- معركة وادي المخازن 4أغسطس 1578م:

قاد الملك البرتغالي شخصيا الحملة الصليبية المؤلفة من 75 ألف مقاتل معظمهم من البرتغاليين وبمشاركة بعض الإسبان و الايطاليين و الألمان وبمباركة من البابا ، وبعضا من المغاربة من أنصار المتوكل ، ونزل الجيش دون مقاومة في طنجة وشنّ الغارة على سواحل المغرب الشمالية "تطوان والعراتش ثم تقدم الجيش نحو القصر الكبير، تصدى له جيش عبد الملك بمشاركة الأندلسيين والعثمانيين "... وكان يفوق الجيش البرتغالي في العدد إذ كان يتألف من 52 ألف مقاتل جلهم من الفرسان، وقد نجح عبدالملك بخبرته العسكرية إلى استدراج الحملة البرتغالية إلى المناطق الداخلية (وادي المخازن) مبتعدا عن السواحل البحرية حتى يسهل تشتيت صفوفها وإلحاق الهزيمة بها وقد نجح في ذلك .

ويمكن حصر أسباب معركة وادي المخازن 986هـ الموافق ل 4 أكتوبر 1578م فيما يلي:

- ✓ صراع أبناء الأسرة الحاكمة على السلطة (السلطان المتوكل – وأعمامه عبد الملك

واحمد المنصور وعبد المؤمن).

- ✓ رغبة العثمانيين في كسب التحالف المغربي لصد الهجمات الاسبانية من خلال مساندة السلطان عبد الملك وإخوته.
- ✓ تزايد أطماع البرتغاليين للتوسيع مناطق نفوذهم في المغرب من خلال مساندة السلطان المتوكل والحصول على امتيازات.

ومن نتائجها وانعكاساتها :

- ✓ مقتل الملوك الثلاث (عبدالملك – محمد المتوكل – الدوق سيبستيان).
- ✓ مقتل الآلاف من البرتغاليين ووقوع الكثير منهم في الأسر حيث قدر ب14000جندي والذي تمّ فتداؤهم بالكثير من الأموال.
- ✓ خلو العرش البرتغالي حيث آل إلى خاله فليب الثاني ملك اسبانيا بما في ذلك مستعمراتها (مدينة سبتة).
- ✓ استعادة الدولة السعدية مكانتها وهيبتها الدولية على عهد السلطان احمد المنصور الذهبي
- ✓ توثق العلاقة الودية مؤقتا بين العثمانيين و السعديين.

5- الدولة السعدية في عهد السلطان احمد المنصور الذهبي1578-1603

بعد معركة وادي المخازن بويع احمد المنصور سلطانا على المغرب ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وحملت وطوفى بها في المدن والقرى المغربية حتى يبقى عبرة لغيره، ومن ذلك الحين أصبح "المتوكل"يلقب بالمسلوخ .

وفي عهد المنصور شهد المغرب استقرارا قلما عرفه وذلك راجع الى شجاعته وسعة ثقافته وحنكته الدبلوماسية والإدارية، كما عمل على تقريب العلماء والفقهاء

من مجلسه فلذا قال عنه الفشتالي حول سياسته الحكيمة : " اهتم كثيرا بتنظيم الجيش والأسطول البحري. فكان الجيش النظامي الحديث قد تشكلت عناصره الأساسية من الأتراك العلوج والأندلسيين ، ويعتمد على الأسلحة الحديثة المصنوعة محليا أو المستوردة من أوربا ، وسمي بعسكر النار".

وما يلاحظ أن نظم الدولة في عصره سواء في الجيش أو الإدارة وغيرهما قد صبغت بالصبغة التركية، فأصبح نفوذ الأتراك في إدارة المخزن والجيش كبير جدا ولافت للانتباه، وحتى اللباس التركي أصبح ظاهرة منتشرة في أوساط المجتمع المغربي. كما اعتنى المنصور بأمر الأسطول البحري وأوكل أمره إلى ابرز القادة البحرية وهو الريس إبراهيم الشط الذي جعل مركز قيادته في ميناء العرائش. ومن ابرز الشخصيات العسكرية التركية والأندلسية التي أولاها قيادة الفرق العسكرية نذكر منهم: مصطفى باي قائد الصبايحية المكلفون بحراسة السلطان، والباشا محمود الحامل والحامي لمفاتيح خزائن بيت المال، والقائد علوج قائد جيش العلوج، والباشا جؤذر قائد جيش الأندلس.

بادر المنصور بعد أن تمت له البيعة بأن أرسل رسولا إلى السلطان العثماني (مراد الثالث1574-1595) برئاسة احمد بن يحيى الهوزالي . وقد طالب السفير العثماني من المنصور تعيين إسماعيل بن عبد المالك حاكما على فاس ولكن المنصور رفض الردٍ عليه. لذا وقعت ضده حادثة تمرد وتآمر القادة الأتراك في جيشه ونادوا بأحقية أخيه عبد المؤمن بالسلطة. وبقيت العلاقات بين احمد المنصور والعثمانيين تتراوح بين مد وجزر ولم ترق لا إلى العداء المشؤوم ولا إلى الود المحمود . وفي أواخر عهد المنصور تحسنت العلاقة بينه و بين السلطان العثماني (محمد الثالث1595-1603) بسبب انشغال السلطان العثماني بالحرب مع الصفويين والنمسا ومشاكل البلاد العربية وتبدل الوضع في الجزائر بسبب الاضطرابات الداخلية. وبعد وفاة المنصور عام1603م مرّ المغرب بحالة تفكك نتيجة الافتتان على السلطة بين أبنائه، وهم زيدان والمأمون وأبا فارس خلال الفترة1603-1610م، ثم امتدت إلى أبنائهم إلى أن قضى العلويون على نفوذهم نهائيا عام 1659م.